

(٤١)

مَنْ إِلَّا اللَّهُ ... !

(٢)

العدد (١٣٥) ربيع الأول (١٣٩٦هـ) مارس (١٩٧٦م)

ذكر الطيار الروسي «تيتوف» مشاهده وهو في الفضاء يدور بسفينته العجيبة حول الأرض، لقد رأى مظاهر كونية شتى كلها ساحر رائع، ثم قال:

«ولكن أروع من هذا كله منظر الأرض وهي معلقة في الفضاء، إنه منظر لا يستطيع الإنسان أن ينساه ولا أن يضيعه من خياله، كرة تشبه الصور المرسومة لها في الخرائط، معلقة في الفضاء ليس هناك من يحملها، كل ما حولها فراغ.. فراغ.. فراغ..»

وقد أصبت بالذهول مدة لحظات وساءلت نفسي في دهشة: ترى ما الذي يبقيها معلقة هكذا هناك..؟»

والجواب: من إلا الله؟ إن هذا السؤال الذي توحى به الفطرة البريئة لا نرى أيسر ولا أصرح ولا أخصر من إجابة القرآن الكريم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر: ٤١)، إنه هو الذي أبقاها معلقة هكذا في مكانها، كما أبقى القمر، والشمس اللذين نراهما ليلاً ونهاراً، لا ركيعة لأحد هذه الكواكب إلا أعمدة القدرة العليا قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بَعِيرٍ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (لقمان: ١٠). إن سفينة الفضاء التي قبع في داخلها تيتوف، لم تتطلق من تلقاء نفسها، ولم تتجمع آلاتها وأجهزتها خبط عشواء، ولم تقم برحلتها السماوية دون نظام محكم رسمه لها أذكى العلماء، فهل

يا ترى انطلقت الأرض في فضاءها من تلقاء نفسها، ودون مشرف على حركاتها، ودون تقدير دقيق لصلتها بغيرها من شتى الكواكب ودون رعاية لحاجات الألوف المؤلفة من الأحياء المحتشدة فوق سطحها.. إن هذا ما ينفية العلم نفسه، وما تشهد بغيره سفينة الفضاء التي ركبها الرائد الروسي المتسائل المدهوش.. إننا نسأل مع هذا الطيار وغيره: من الذي يستبقي الأرض، وجميع الكواكب القريبة والبعيدة في مداراتها الرحبة، تسبح دون إعياء، ودون اضطراب في فضاء الكون العظيم؟ ومن ينسق لها حركاتها فلا تصطدم ولا تتحرف؟

إننا لا نسأل نحن، بل القرآن نفسه يسأل ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٨٧) قُلْ مَنْ يُبْدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُخْفِيهِ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (المؤمنون: ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩).

إن الإيمان ليس حالة تنشأ من ركود النشاط الفكري، وتأثر العقل بالأوهام والخرافات، وإيمان من هذا القبيل لا وزن له..

ولعلماء المسلمين كلام في قيمة إيمان المقلد، لقد رفضه فريق منهم، ورأى أنه لا يفيد صاحبه! لماذا؟ لأن الله يقول: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (النجم: ٣٩) وإيمان المقلد ليس من سعيه، وإنما هو من سعي غيره له.

أجل إنه من سعي الأذكياء الذين فكروا وواصلوا، أما هو فلم تعتمل في نفسه فكرة، ولم تتحرك في كيانه همة، بل تتبع الآخرين دون وعي، وهذا لا يعد جهداً محترماً حقيقاً بالمتوبة. ومن ثم فنحن نحب أن يسأل «تيتوف»

وأن يسأل غيره من الناس عن مظاهر الكون كلها، وأن يبحثوا بحماسة عن الخالق الكبير وأن يتحروا الحقيقة في تقرير الإجابة وألا يكتفوا بالتساؤل المبتور، أو ينطقوا بالسؤال ثم تقلبهم تيارات مجنونة دون انتظار الجواب..

إنا سمعنا من فم الوحي- قبل أن نسمع من الطيار الروسي المبهور- هذا السؤال عن الأرض ومن فيها قال تعالى: ﴿قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ وسمعنا الجواب الحتم عقب هذا السؤال الواجب ﴿قُلْ لِلّٰهِ كَتَبَ عَلٰى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمعَنَكُمُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢).

إن الإسلام دين فجر الطاقة العقلية في البشر وجعل اليقين في الله نتيجة لا بد منها لتجوال الفكر الإنساني المستيقظ النابه في آفاق السموات والأرض، ولذلك لا يوجل الإسلام من البحوث العلمية ولا الكشف الكونية، بل على العكس يدفع إليها دفعا ويحض عليها حضا. وكل خطوة يخطوها العلم الكوني تؤكد أن الله من وراء كل حركة وسكنة، وأن المادة يستحيل أن تتخلق من غير شيء، وأن هذا الاطراد والاتساق في القوانين التي تربط بين أجزاء المادة يستحيل أن يتولد من الهباء ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ سَيَرِيكُمْ ءَايَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (النمل: ٩٣).

والعقل الإنساني كفر بما ينبغي الكفر به على الإجمال!

تقول: كيف هذا والجواب أن الناس مع إطباقهم على ضرورة الألوهية ونفرتهم من التعطيل، وإنكار رب العالمين، مع هذا فقد أبوا إلا تصور الألوهية على أنحاء منكرة وارتسمت لها في أذهانهم صور أغلبها باطل، والعقل الذي يرفض عبادة حيوان أو جماد معذور في كفره بهذه الآلهة، والعقل الذي يأبى التسليم بآلهة شركاء، وأب وأبناء، معذور في إباطه هذا، ولأمر ما كانت كلمة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ مكونة من شقين، أولهما نفي والآخر إثبات.

لا إله .. هذا الشق الأول من الكلمة يعني نفي ما صنعه الخيال البشري من آلهة أرضية وهي آلهة شاع الإيمان بها- ولا يزال- في أقطار كثيرة، وبين جماهير غفيرة.

ونحن المسلمين نكفر بهذه الآلهة المختلفة، ونقول ما قاله القرآن الكريم ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ (يوسف: ٤٠).

والماديون اكتفوا بهذا الشق، ولو عقلوا لأدركوا أنه بعد الكفر بالآلهة التي صنعها الناس لا بد من الإيمان بالله الذي صنع كل شيء، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

لا بد بعد كلمة لا إله التي تنفي كل ألوهية باطلة أن يجيء بعدها الإثبات العظيم الحق وهو.. إلا الله.

الله الذي أحس الطيار بعض آثاره عندما رأى الأرض معلقة في الفضاء يكتنفها الفراغ من كل ناحية، فهتف دهشاً: من يحملها؟ ونحن نجيب: من إلا الله؟

ثم نقول من أعماق قلوبنا:

لا إله إلا الله محمد رسول الله.

